بريجيت هيرمانز باحث زميل في مركز حقوق الإنسان بجامعة غنت، حيث تدرس كيف يمكن للفنون أن تساهم في إحقاق العدالة في سوريا. لديها خلفية في دراسات الشرق الأوسط وعملت كمسؤولة سياسات لمنظمات غير حكومية – Broederlijk Delen Pax Christi Flanders (٢٠٠٢-٢٠١٨) – وعملت كمنسقة لكرسي محمود درويش في مركز بوزار الثقافي ببروكسل (٢٠١٧-٢٠١٩).

الكلمات والعوالم في سوريا: مواجهة الصمت السردي

بريجيت هيرمانز

سوريا لديها تقليد طويل من الممارسات الاحتجاجية والفنية التي تتحدى بطرق رمزية وغير مباشرة احتكار الدولة للسياسة وللثقافة. بلغ هذا التقليد أوجّه مع بداية الاحتجاجات في ٢٠١١ حتى أحدث طفرة في نشاط المجتمع المدني والإنتاج الإبداعي. إلا أن قمع النظام العنيف للاحتجاجات واضطهاده للمعارضين أجبر معظم الفنانين على الفرار من البلاد. لكن لم تمر هذه الفورة الإبداعية دون أن يلاحظها العالم الخارجي؛ فقد ازداد الاهتمام بالروايات والأفلام والمسرحيات السورية بشكل ملحوظ. سيكون التركيز في هذه المقالة على قدرة الممارسات الفنية، خاصة في المجال الأدبي، على أن تجعل الضعف مرئيًا وتشير في الوقت ذاته إلى استحالة كبح الإنسانية، بينما تقف شاهدة على آلام وآمال السوريين.

تمرد في مملكة الصمت

منع نظام الأسد، منذ وصوله إلى السلطة في ١٩٧٠، إنشاء مساحات عامة للخلاف، وتوقع من مواطنيه التلاؤم مع السردية الرسمية عن ثورة تقودها الدولة من أجل مصلحة شعبها. أدّى ذلك إلى وضع وصفته عالمة الأنثروبولوجيا ليزا ويدن على النحو التالي: «كل سوري ضليع في التمثيل الوهمي للواقع، وفي تلك اللغة الرمزية، نتيجة لتعرض الجميع لوابل متواصل من التكرار الخطابي.»[١] في مواجهة السرد الرسمي المائل دومًا، اختبر الفنانون السوريون حدود ما يمكن

١ ليزا ودين: التصرف «كما لو»، دراسات مقارنة في المجتمع والتاريخ، المجلد/ ٤٠، العدد: ٣، (١٩٩٨) الصفحات: ٥٠٣-٥٢٣.

قوله وتطويره من خلال إبداعات جمالية.[٢] و بالاعتماد على الاستعارة والرمز، خلق الفنانون مساحات تستوعب التنوع والخلاف، وتمكنوا من تطوير ثقافة مضادة يصعب قمعها، تسمح لوجهات النظر المختلفة بالتعايش جنبًا إلى جنب.

قبل اندلاع الانتفاضة الشعبية بفترة طويلة، كانت هناك مقاومة ضد الدولة الدكتاتورية. وانعكست هذه المقاومة في الفنون المختلفة، فأدان رسامو كاريكاتير وكتاب وصانعو أفلام وآخرون الاستبداد بطرق مستترة. وكان الفيلم الوثائقي السوري سياسيًا ومعارضًا منذ أوائل سبعينيات القرن الماضي، مما فتح الطريق أمام استخدام الكاميرا لتوثيق الانتفاضة التي تنبأ بها العديد من صناع الأفلام، حيث شعروا بأن الاستياء الشعبي آخذ في الازدياد.[٣] تناولت السينما السورية طموحات الوطنية والمواطنة المحبَطة على يد صانعي أفلام مثل أسامة محمد ونبيل المالح وعمر أميرلاي وهالة عبد الله. في فيلمه الوثائقي «الحياة اليومية في قرية سورية» (١٩٧٤) ينتقد أميرلاي فشل الحكومة في توفير الخدمات الأساسية للفقراء، وعلى الرغم من الحظر الذي فرضه النظام على فيلمه هذا، استمر أميرلاي في صناعة أفلام في نفس الاتجاه النقدي.

رفض الفنانون المعارضون الصمت الذي حاول جعلهم بلا صوت. فكما تقول الفيلسوفة الأمريكية ربيكا سولنيت: «الصمت هو ما يسمح للناس بالمعاناة من دون مهرب، وهو ما يسمح للنفاق والكذب بالنمو والانتشار، و للجرائم بأن تمر بلا عقاب. وإذا كانت أصواتنا جانبًا جوهريًا من إنسانيتنا، فإن الحرمان من الصوت يُعد تجريدًا من الإنسانية أو استبعادًا منها».[٤] في الفيلم الوثائقي «رحلة إلى الذاكرة» (٢٠٠٦) تسافر هالة محمد إلى موقع تدمر القديم مع الكتاب ياسين الحاج صالح وفرج بيرقدار وغسان جباعي. وكان الرجال الثلاثة قد قضوا فيما بينهم ٤٠ عامًا في المُجمل بالقرب من الموقع، لكن لم يره أحدهم قبلًا، حيث كانوا معصوبي العينين عند نقلهم إلى سجن تدمر. يصبح جليًا في الفيلم كيف نجّاهم

٢ سون هيوبل: «السجن، قول الحقيقة والذاكرة التاريخية في سوريا»، سياسات البحر الأبيض المتوسط، المجلد/ ١٣، العدد: ٢، (٢٠٠٨) الصفحات: ٢٦١- ٢٧٦.
٣ جوشكا وايسلس: «توثيق سوريا: صناعة أفلام، نشاط الفيديو والثورة» (I.B. Tauris- ٢٠١٩).
٤ ربيكا سولنيت: «الصمت والعجز يسيران جنبًا إلى جنب: يجب سماع أصوات النساء»، (الغارديان، ٨ مارس ٢٠١٧):
https://www.theguardian.com/commentisfree/2017/mar/08/silence-powerlessness-womens-voices-rebecca-solnit.

صمودهم أمام سوء المعاملة والتعذيب في السجن. في ٢٠١١ أصبح ياسين الحاج صالح أحد أهم أصوات الثورة، وظهر في فيلم وثائقي آخر هو «بلدنا الرهيب» (٢٠١٤) متحدثًا عن آمال الثورة التي تحطمت وما أدّى به إلى المنفى في تركيا. ومن الأمثلة البارزة الأخرى على المعارضة الفنية المسلسلات الرمضانية التي تقدم الترفيه بينما تنتقد قضايا مثل الفساد تحت ستار الفكاهة. تذكرنا القدرة على استخدام الفكاهة في الوقوف على مسافة من الواقع ورفض الخضوع بتعريف الفيلسوف الفرنسي ألبير كامو للتمرد حين يقول: «من هو المتمرد؟ رجل يقول لا دون أن يعني رفضه زهدًا. فهو أيضًا رجل يقول نعم، منذ اللحظة التي يقوم فيها بإيماءة التمرد الأولى. عبد يتلقى الأوامر طيلة حياته وفجأة يقرر أنه لا يستطيع طاعة أمرًا جديدًا».[٥] وفّرت المسلسلات والدراما والكوميديا متنفّسًا في الأوقات المظلمة وعكست الروح المتمردة للسوريين. تستحضر ليزا ويدن المسلسلات الشعبية مثل «ضيعة ضايعة» (٢٠٠٨-٢٠١٠) التي توظّف المحاكاة الساخرة للتهكم على نظام الأسد والظروف في سوريا.[٦]

استعادة الصدمات واستدعاء التعاطف وتغذية المقاومة

على مدى عقود من الزمان، تشكّلت الكتابة السورية على يد السلطوية الباطشة، وعبرت الشاعرة والباحثة السورية الأمريكية مهجة كهف عن ذلك حين قالت: «الأدب السوري اليوم يفور بما لا يمكن قوله وهذا سر عبقريته».[٧] بات الأدب السوري متنوعًا على نحو متزايد من حيث المحتوى والتوجه والتقنية وشكل وأساليب التعبير.[٨] وحتى قبل عام ٢٠١١ تعرّضت روائيات مثل روزا ياسين حسن وسمر يزبك إلى محظورات الدولة المهيمنة وتحدّين صراحةً جهاز المخابرات المعروف بعنفه وتعسفه.

تناول مؤلفو ما يسمى بـ «أدب السجون» الصدمات النفسية الناجمة عن السجن والتعذيب منذ تسعينيات القرن الماضي. نقلوا الأحداث الصادمة و»ذكريات

٥ ألبير كامو: «المتمرد: مقال عن الإنسان في الثورة» (قديم، ١٩٩١)، صفحة: ٩
٦ ليزا ويدين: «الأيديولوجيا والفكاهة في الأوقات المظلمة: مدونات من سوريا»، التحقيق النقدي، المجلد/ ٣٩، العدد: ٤ (٢٠١٣)، الصفحات: ٨٤١-٨٧٣.
٧ مهجة كحف: «صمت الأدب السوري المعاصر»، الأدب العالمي اليوم، المجلد/ ٧٥، العدد: ٢ (٢٠٠١) الصفحات:٢٢٤-٢٣٦.
٨ ماكس فايس: «من يضحك أخيرًا: التحولات الأدبية للاستبداد السوري»، مع: ستيفن هايدمان وريبود ليندرز (محرران)، سلطوية الشرق الأوسط: الحكم وتحديات وصمود النظام في سوريا وإيران (مطبعة جامعة ستانفورد، ٢٠١٣)، صفحات: ١٤٣-١٦٥.

الرعب تحت حكم عشيرة الأسد، حيث يمكن أن ترسل كلمة خاطئة واحدة بالشخص للسجن أو إلى حبل المشنقة»، كما تشير الباحثة ميريام كوك في كتابها المهم.[٩] أدّى وصول بشار الأسد إلى السلطة في سنة ٢٠٠٠ إلى زيادة في الإنتاج الأدبي والسينمائي عن السجن بعد أن أحيت رئاسته آمال التحرر السياسي.[١٠] إلا أن العديد من هذه الأعمال تم حظرها لأنها تقوّض بشكل جوهري شرعية النظام وتقيم صلة بين عنف الدولة في الماضي والحاضر.

ومن الأمثلة الصارخة على التأثير الواسع لأدب السجون رواية مصطفى خليفة «القوقعة». سُجن خليفة في الفترة من ١٩٨٢ إلى ١٩٩٤ بسبب أنشطته السياسية كعضو في المعارضة اليسارية واحتُجز دون محاكمة في سجون أمن الدولة المختلفة، بما فيها سجن تدمر سيئ السمعة. موسي، بطل الرواية، سجين سياسي، مسيحي ملحد اعتُقل بالخطأ باعتباره إسلاميًا متطرفًا. يتعرّض موسى للنبذ من زملائه في السجن ويظل صامتًا طوال سنوات سجنه الاثنتا عشر. صدرت الرواية باللغة الفرنسية في ٢٠٠٩ قبل نشرها باللغة العربية، حيث تجنب الناشرون العرب طباعتها. وتبقى الرواية مرجعًا للنشطاء والفنانين السوريين ممّن يمكنهم التماهي مع تجارب السجين الذي يتعرض لتعذيب شديد يجعل رغبته الوحيدة هي الموت. «يصبح الموت أمنية!! أتمنى الموت صادقًا. حتى الموت لا أستطيع الحصول عليه».[١١]

من خلال شهاداتهم، ألهم كتاب مثل مصطفى خليفة وحسيبة عبد الرحمن وفرج بيرقدار ضحايا آخرين لتوثيق تجاربهم وجمع الأدلة على انتهاكات الدولة لحقوق الإنسان. وبالتالي، مكّن تبادل ذكريات المعاناة العديد من المعارضين من الكتابة والرسم وصناعة صور متحركة لتحويل الصدمة إلى مقاومة.[١٢] حدثت أيضًا مقاومة ضد الصمت المفروض في مجال إحياء الذكرى المقموعة. فعلى الرغم من قمع النظام لأي نقاش حول «أحداث» حماة سنة ١٩٨٢، أي مذبحة الجيش السوري لقمع الانتفاضة التي شنها إسلاميون مسلحون، قام الكثيرون بالكتابة

٩ مريم كوك: «الرقص في دمشق: الإبداع والصمود والثورة»، (روتليدج، ٢٠١٧).
١٠ مريم كوك: «قصة الزنزانة: قصص المعتقلات السورية بعد حافظ الأسد»، نقد الشرق الأوسط، المجلد/ ٢٠، العدد: ٢ (٢٠١١)، الصفحات: ١٦٩- ١٨٧.
١١ مصطفى خليفة: «القوقعة: يوميات متلصص» (بيروت، دار الآداب، ٢٠٠٨)، صفحة: ٥.
١٢ سون هوبول: «السجن، قول الحقيقة والذاكرة التاريخية في سوريا»، سياسة البحر المتوسط، المجلد/ ١٣، العدد: ٢ (٢٠٠٨)، صفحات: ٢٦١-٢٧٦.

عنها.

خالد خليفة كاتب سوري مقيم في دمشق، وفي روايته «مديح الكراهية» يدعو قراءه إلى استعادة الصدمة التي لا تزال تطارد المجتمع السوري وإلى دراسة الطائفية التي تعصف بالمجتمع. تجرأ فتحدّي السردية الرسمية علنًا، واختبر بذلك حدود حريته في التعبير. تم حظر كتابه في سوريا بعد شهرين من نشره في ٢٠٠٦ وتوجّب إعادة إصداره في بيروت.

من الجدير بالذكر أن خليفة أضفى في هذه الرواية وجهًا إنسانيًا على التطرف الديني، داعيًا قراءه إلى نوع من التعاطف. فمن رأيه أن الهدف من الأدب هو «إيقاظ التسامح عندما يفكر الآخرون في الانتقام أو المتاجرة في الصيغ المبتذلة التي يستخدمها دعاة الحرب».[١٣] جعل خليفة من التطرف تجربة ملموسة من خلال عرض عملية تجذير الراوية ثم سجنها ثم تخليها عن كراهيتها الطائفية السابقة. «في نهاية ذلك الصيف تملكتني الكراهية، تحمست لها، أحسست بأنها تنقذني وتمنحني شعورًا بالتفوق أبحث عنه، قرأت الأوراق التي كانت توزع علينا في كل اجتماع بعناية، أحفظ منها مقاطع كاملة خاصة فتاوى تكفير الطوائف الأخرى، اقتربت من رفيقاتي السبع، أحببتهن، تبادلنا الأسرار وكتب تصف عذاب القبر الرهيب...».[١٤]

كانت للكاتبة روزا ياسين حسن أيضًا الشجاعة للتصدي لإرهاب النظام وسحقه لمعارضيه ومنعهم من ممارسة حياتهم أو البدء من جديد. تركز روايتها «حراس الهواء» على السجن، كما تتطرق إلى الموضوع المحظور الخاص بالحياة الجنسية للإناث.[١٥] الشخصية الرئيسية، عنات، مترجمة في السفارة الكندية في دمشق، تترجم شهادات اللاجئين الذين يسعون للهرب من الاضطهاد. وهي حامل في شهرها الثالث وتقرر ترك عملها لأنها لم تعد قادرة على تحمّل القصص الموجعة. تنتظر خطيبها جواد المسجون بسبب نشاطه اليساري. لكن عنات ليست بينيلوبي العصر الحديث في انتظارها لأوديسيوس، بل هي ترغب بالأساس في أن تكون حرة، وهكذا تنفصل تدريجيًا عن جواد. تتأمل ياسين حسن في روايتها

١٣ خالد خليفة: مذكور في المقابلة: «حديث مع خالد خليفة» (وكالة رايه، ١١ تموز/ يوليو ٢٠١١): http://www.rayaagency.org/2011/07/a-conversation-with-khaled-khlifa/
١٤ خالد خليفة: «مديح الكراهية» (بيروت، اميسا للنشر والتوزيع، ٢٠٠٦)، صفحة: ١١٥.
١٥ روزا ياسين حسن: «حراس الهواء» (بيروت، رياض الريس، ٢٠٠٩).

الاستشرافية فتقول: «عندما يكون الشخص محاصرًا برتابة الحياة، يصبح أبسط نسيم للحرية قادرًا على إثارة التغيير. لقد سمحت عقود من الإحباط المتراكم للشعلة المدفونة داخل الناس بتحريرهم من الخوف من الأجهزة الأمنية. فالحرية وحرارة نفس الجذر في اللغة العربية».[١٦]

ثورة إبداعية قصيرة الأجل

مهد فنانو عصر ما قبل ٢٠١١ الطريق أمام خلق مساحات عامة مفتوحة والمشهد الفني النشط الذي أعقب اندلاع حركة الاحتجاج. أعادت بداية الثورات العربية في عام ٢٠١١ الأمل في ألّا يُحكم على السوريين بالصمت الجماعي مرة أخرى. لكن للأسف أرغم رد الفعل العنيف للنظام وصعود الجماعات المتطرفة معظم الفنانين على مغادرة البلاد. فمنذ سنة ٢٠١١ وفيما تلاها من سنوات استمر النظام في تصعيد القمع وفي اضطهاد الفنانين وتدمير إنتاجهم الفني، في حين قام بتأطير الصراع كمعركة ضد الإرهاب والجهادية وفرض تلك السردية في أنحاء العالم الخارجي، مكممًا بذلك ضحاياه مرة أخرى. علاوة على ذلك، أدّى ظهور داعش والتحول السريع للثورة الشعبية إلى حرب أهلية إلى تغيير الإطار الخارجي للصراع، محولًا التركيز من النضال ضد الاستبداد إلى النضال ضد التطرف.
ونتج عن هذا التطور تهميش الاهتمام بالضحايا، مما قلّص مساحة المجتمع المدني الناشئ والمشهد الفني. واجه النشطاء والفنانون بشكل متزايد ما أطلقت عليه جاياتري تشاكرافورتي سبيفاك، في مقالها الرائد الذي يسأل إن كان ممكنًا للمهمش أن يتحدث، لفظ «العنف المعرفي» أي تهميش جماعة ما من خلال الخطاب.[١٧] بصرف النظر عن العنف الجسدي، يكافح الفنانون لمواجهة هذا العنف الذي يهدد بطمس تاريخهم وتجاربهم ومحو فنونهم. تمكّنهم التمثيلات الجمالية من تفعيل إرادتهم والابتعاد عن الهوامش والمشاركة في صياغة سردية التحوّل في سوريا وإجبار الآخرين على الإنصات.

١٦ روزا حسن ياسين: «آه، هل ما زلت تريد الحرية؟»، البريد الدولي (٢١ سبتمبر/ أيلول ٢٠١١): https://www.courrierinternational.com/article/2011/09/22/ah-vous-voulez-encore-la-liberte.
١٧ غاياتري شاكرافورتي سبيفاك: «هل يستطيع التابع أن يتكلم؟»، مع غراي تيلسون ولوراس غروسبيرغ (محرران)، الماركسية وتفسير الثقافة، مكميلان ١٩٨٨.

ولكن حتى وإن كان الثمن باهظًا، فإن اكتشاف الصوت الذاتي هو أحد أهم التطورات في المجال الفني السوري. يقول الشاعر أحمد قطليش: «أحدثت الثورة السورية الكثير من التغييرات، فأخرجتنا من هذه المساحة الصغيرة حيث نتشابه جميعا، حيث كنا محدودين للغاية داخل أنفسنا أيضًا. فجأة أصبحنا أحرارًا تمامًا في التعبير عن أنفسنا.»[١٨] وتعلّق النحاتة والمؤرخة الفنية نور عسلية: «حرّر الفنانون أنفسهم من أي شيء قد يحول دون حريتهم الفنية. وجدوا طرقًا للتعبير عن أنفسهم عبر وسائل التواصل الاجتماعي والقنوات الجديدة المختلفة التي فتحتها لهم الإنترنت».[١٩]

جاءت القدرة على رفع الصوت بالحقيقة في وجه السلطة بعد تبخّر الخوف الذي سيطر على حياة الناس لعقود.[٢٠] جعلت الروائية ديمة ونوس من ذلك الخوف، والخوف من الخوف، إلى موضوع رئيسي في كتابها «الخائفون».[٢١] فهي ترى أن الثورة «كسرت جدار الخوف، رغم أنها ربما لم تدمّره تمامًا. كان الخوف من كل شيء - النظام والسلطة والجيش وحتى الناس - كانوا يخافون من بعضهم البعض، ويتشككون في بعضهم البعض. الثورة ليست ضد النظام فحسب، بل ضد أي شيء يخلق الخوف. لقد نشأت على الخوف، وكان جيلي جيلًا خائفًا. جيلي لديه ذكريات عن مذابح حمص، حيث لقي ما بين خمسين إلى مئة ألف شخص حتفهم أو فقدوا. ولا يزال البعض مفقودًا حتى اليوم، ولا زالت أسرهم تبحث عنهم».[٢٢] عبّر الكتاب عن آرائهم في الروايات والقصص القصيرة والشهادات والقصائد والمسرحيات، مجرّبين أشكالًا جديدة مثل المنشورات الأدبية على فيسبوك. يؤكد الكاتب مصطفى تاج الدين الموسى أن الثورة فتحت نوافذ المشهد الأدبي بالكامل وحوّلته إلى كاتب وأديب: «قبل الثورة كانت الحرية مختبئة في رأسي، وبعد الثورة أصبحت واقعًا يُرى. كنت لا أكتب مثلًا عن قناعاتي الدينية ، ولكن بعد الثورة وبعد كل هذه الدماء صرت أكثر شجاعة. كنت أيضًا أكتب نصوصًا ضد النظام ولا أنشر منها شيئًا. بعد الثورة صرت أكتب ضد النظام وأنشر هذه

١٨ حوار عبر سكايب مع الشاعر أحمد قطليش، المقيم في كولون، ٢٨ يناير/ كانون الثاني ٢٠٢٠.
١٩ حوار عبر سكايب مع النحاتة والأكاديمية نور عسلية، المقيمة في باريس، ١١ فبراير/ شباط ٢٠٢٠.
٢٠ ويندي بيرلمان: «روايات الخوف في سوريا»، وجهات نظر حول السياسة، المجلد/ ١٤، العدد: ١ (٢٠١٦) صفحات: ٢١-٣٧.
٢١ ديمة ونوس: «الخائفون»، (بيروت، دار الآداب، ٢٠١٧).
٢٢ ديمة ونوس: مقابلة مع الروائية ديما ونوس المرشحة في القائمة المختصرة لـ: IPAF حول «الحالة التي تسبق الخوف»، أرابليت (٥ أبريل ٢٠١٨): https://arablit.org/2018/04/05/ipaf-shortlisted-novelist-dima-wannous-on-the-condition-that-precedes-fear/

الكتابات».[٢٣]

ويخاطب القارئ في افتتاحية قصته «تهريب أبطال دوستويفسكي من إدلب» قائلًا: «لكلٍّ سوري هرب من سوريا خلال سنوات الحرب حكايته الخاصة به، وله خيالاته الخاصة به أيضًا، وأنا من أولئك الذين لهم حكايتهم الخاصة، وبسبب هول الكارثة ما عدتُ أستطيع التمييز بين ما هو خيالي، وبين ما هو واقعي. ولكن، قبل أن تقرأ حكايتي يا عزيزي القارئ، أودُ أن أسألك، هل أنت مؤمن؟ ستجيب بنعم، إذاً أتمنى ألا تموت في سبيل إنقاذي، أنا الكافر».[٢٤]

أُجبِر تاج الدين الموسى على مغادرة سوريا ولكنه لا يستطيع أن يفصل نفسه عن مسقط رأسه إدلب. أمام تدمير بيئته كما يعرفها يجد في نفسه رغبة ملحة في سرد تجارب الناس وتحويلهم من إحصاءات إلى أناس حقيقيين.

احتلت السينما والتصوير مساحة مركزية في هذه الثورة الإبداعية بسبب تأثيرها البصري. كما تجاوزت هذه التخصصات حدود الفن والتوثيق. سيطر المواطنون المنخرطون في أشكال التعبير الفني على ما يتم تصويره، و أنتجوا صورهم الخاصة التي شاركوها مع العالم بشكل رئيسي من خلال مجموعات فيسبوك ويوتيوب. برز نشطاء وصانعو أفلام في جميع أنحاء البلاد، تعاونوا وأسسوا مجموعات مثل «أبو نضارة» لفن الفيديو و»بدايات» للسمعيات والبصريات. كان هدفهم التصدي لحرب الصور وإضفاء الطابع الإنساني على الصراع من خلال سرد قصص السوريين العاديين. ترى مجموعة أبو نضارة نفسها ضالعة في معركة مزدوجة: ضد دعاية النظام وضد التأطير الخارجي للوضع باعتباره صراعًا بين النظام والجماعات المتطرفة: «وهكذا حُرم شعب سوريا من الاعتراف بتنوعه، ليصبح محصورًا في لعب دور المجاميع في التقارير التلفزيونية، ضحايا دون أسماء أو أصوات».[٢٥] ساعد التعبير الفني أيضًا على توثيق انتهاكات القانون الدولي، ووضع الضحايا في مقدمة المشهد، وتحدّي فشل ردود الأفعال الدولية.

٢٣ حوار عبر سكايب مع مصطفى تاج الدين الموسى، المقيم في إسطنبول، ١٢ فبراير/ شباط ٢٠٢٠.
٢٤ مصطفى تاج الدين الموسى: «تهريب أبطال دوستويفسكي من إدلب» (٢٠١٩)، من مجموعة: «ساعدونا على التخلص من الشعراء»، دار نون، صفحات: ١٥٥-١٧٣.
٢٥ دورك زيونيان: موقع أيونادارا: https://www.documenta14.de/en/artists/949/abounaddara

منحت الثورة والحرب الأهلية التي تلتها زخمًا غير مسبوق لمحتوى وأساليب تصوير الفيديو السوري. وفقًا لعالمة الأنثروبولوجيا البصرية والباحثة جوشكا فيسيلز فإن «وصول الأفلام الوثائقية سورية الصنع إلى الأسواق والمهرجانات العالمية، والعدد الهائل من مقاطع الفيديو على يوتيوب من سوريا منذ اندلاع الانتفاضة، يشكل ثورة في حد ذاته. فقد بدّلت المقاومة الإبداعية الملهمة الطريقة التي يتم بها متابعة وتوثيق الحروب المعاصرة. فجأة، أصبحت الحرب تجربة غامرة».[٢٦]

وصلت الأفلام الوثائقية السورية بثبات إلى الساحة الدولية في ٢٠١٤ ومنذ ذلك الحين شقت طريقها في مهرجانات الأفلام، لتُتوّج بثلاثة ترشيحات لجوائز الأوسكار عن الأفلام الوثائقية «آخر الرجال في حلب» (٢٠١٨) و»الكهف» (٢٠٢٠) للمخرج فراس فياض، و»من أجل سما» لوعد الخطيب (٢٠٢٠). ركزت معظم هذه الأفلام الوثائقية على القصص المهمشة لضحايا الحرب، متصدية للروايات التبسيطية عن ثورة فاشلة. هذه الرغبة في سرد قصة الثورة المستحيلة واضحة بشكل مؤلم في الفيلم الوثائقي «بلدنا الرهيب» (٢٠١٣)، الذي أنتجه محمد علي الأتاسي وزياد الحمصي، ويتتبع فيه الحمصي المعارض الشهير ياسين الحاج صالح، أولًا أثناء رحلة خطيرة إلى الرقة، تحت سيطرة داعش، ولاحقًا إلى منفاه المؤلم في إسطنبول. في الفيلم يتجوّل الحاج صالح في المناطق المدمرة ويقول: «هاي الحرية بدكن إياها؟ لو الخيار إلنا ... كنا نفضّل حرية أكثر شياكة وأقل كلفة. لكن يبدو أن هذا ثمن فُرض علينا».

الحكي والمجاهرة بالحقيقة

تقر الشاعرة رشا عمران بأن الاهتمام بالأدب السوري في تزايد منذ ٢٠١١، وهي تعيش في مصر بعد أن أجبرها النظام على مغادرة سوريا،[٢٧] ونشرت عدة مجموعات شعرية من بينها «تحدي الصمت» وهي مجموعة في ثلاث لغات (العربية والإيطالية والإنجليزية)، يمكن تعريفها كعمل من أعمال المقاومة،

٢٦ جوشكا ويسيلز: «توثيق سوريا- صناعة أفلام، نشاط الفيديو والثورة»، (I.B. Tauris ٢٠١٩).
٢٧ حوار عبر سكايب مع الشاعرة رشا عمران، المقيمة في القاهرة، ١١ فبراير / شباط ٢٠٢٠.

تتحدّى بها الخوف وعدم الفهم.[٢٨] ترى عمران أن الفن والأدب هما الذاكرة الوحيدة التي ستدوم في المستقبل. «عندما أكتب أنا وغيري من الفنانين رسامين وصناع السينما، نحن نعمل بالفن ضد محاولة محونا نحن كأفراد سوريين وأيضًا ضد محاولة إلغاء سوريتنا، وجودنا السوري. عملنا هو محاولة لتكريس ذاكرة سورية ما».[٢٩]

يطمح الكتاب إلى مقاومة فقدان الذاكرة وإثبات أن البشرية لا يمكن سحقها. يقول الكاتب والأكاديمي السوري حسن عباس إن أحد وظائف الأدب الهامة هي منع النسيان، ويصف روزا ياسين حسن وسمر يزبك ومنهل السراج بأنهن شهرزادات العصر، يقدمن للقراء تاريخًا غير خاضع للرقابة. ولكن على عكس شهرزاد، التي كانت تحكي لتنسى، فإن هؤلاء الكاتبات يحكين حتى لا ينسين.[٣٠] ينشغل الكتاب السوريون من خلال إنتاجهم لذاكرة سردية بالمجاهرة بالحقيقة، ويساهمون في خلق أرشيف محتمل يشجع طقوس إحياء الذكرى في المستقبل، كما يعبر عن إمكانية حدوث ذلك المستقبل.[٣١]

في بداية الثورة جالت الروائية السورية سمر يزبك في أنحاء البلاد تجمع الشهادات التي نشرتها في كتاب «تقاطع نيران: من يوميات الانتفاضة السورية». أصبحت يزبك ما أطلقت عليه الكاتبة الجنوب-إفريقية نادين جورديمر «الكاتب الشاهد» الذي يستطيع إنتاج «الوعي المكثف وهوائيات استقبال» المعنى الذي لا يمكن التعرف عليه من خلال نقل الحدث اليومي.[٣٢] أصبحت السرديات الحية التي تروي الفظائع ضرورية لمنح المعاناة وجهًا إنسانيًا. «كان يجب كسر رواية النظام المجرم عن حقيقة هذه الثورة، هذه ثورة وليست حربًا طائفية، ويجب أن يكون صوتي ككاتبة وصحافية مع الانتفاضة، مهما كان الثمن».[٣٣]

٢٨ رشا عمران، تحدي الصمت (هاملتون للفنون والآداب، ٢٠١٨) https://samizdatpress.typepad.com/hal_book_rasha_omran/hal-book-defy-the-silence-poetry-by-rasha-omran.html
٢٩ حوار عبر سكايب مع الشاعرة رشا عمران، المقيمة في القاهرة، ١١ فبراير / شباط ٢٠٢٠.
٣٠ حسان عباس، حكايات ضد النسيان: قراءة في بعض النتاج الروائيّ المعاصر في سورية، ٨ ديسمبر/كانون الأول ٢٠١٣، https://www.alawan.org
٣١ ر. بروملي: «إعطاء الذاكرة مستقبلاً: النساء، الكتابة، الثورة»، مجلة للبحوث الثقافية، المجلد/ ١٩، العدد: ٢ (٢٠١٥) صفحات: ١-١٢. ١٠٨٠، ١٠ / ٩٨٢٩١٤، ٢٠١٤، ١٤٧٩٧٥٨٥.
٣٢ نادين جورديمر: «وصية العالم»، الغارديان (١٥ يونيو/ حزيران ٢٠٠٢): https://www.theguardian.com/books/2002/jun/15/fiction.nadinegordimer
٣٣ سمر يزبك: تقاطع نيران: من يوميات الانتفاضة السورية (بيروت، دار الآداب، ٢٠١٢) ، ص: ٢٦٦.

لا تستطيع يزبك تصوّر ألّا تكتب عن الضحايا. في قصة «المشاءة»[٣٤] تحكي قصة بسيطة لفتاة صماء، ريما، لا تستطيع التوقف عن المشي كلما أتيحت لها الفرصة. اعتادت والدتها ربطها بحبل لتقييد حركتها. لكن في أحد الأيام، في الطريق لزيارة خالتها، يستوقفها الجنود هي ووالدتها عند نقطة تفتيش. لا تقوى ريما على إيقاف نفسها فتبدأ في المشي، معرضة نفسها وأمها للخطر، وتُقتل الأم وتكون هذه بداية هبوط ريما إلى الجحيم، لكنها ترفض التخلي عن رغبتها في المشي والعيش وتجربة الجمال بالرغم من الاعتداءات الوحشية. إنها حكاية دمار وواحدة من أروع الأمثلة على تمكين الأدب للقارئ من الانغماس في حياة مختلفة، والارتحال من الصدمة الفردية إلى الصدمة الحالية للأمة، وهي تخاطب الضعف البالغ لمن فقدوا الطريق ووجدوا أنفسهم وجهًا لوجه مع إبادة العالم الذي شبوا فيه و اعتادوا عليه.

أصبح الوقوف على محنة من لا صوت لهم ومنحهم صوتًا ملمحًا من أبرز ملامح الكتابة السورية الحديثة. وكما يقول خالد خليفة، «الكاتب هو صوت الضحية، هو دومًا صوت الضحية. ليس لدينا إمكانية تجاهل واقعنا والابتعاد عن مشاكلنا. علينا أن نتذكر ذلك جيدًا. ليس لدينا رفاهية الكتابة عن البحيرات والأشياء الجميلة. لكن علينا أن نتذكر أيضًا أن الكتابة لابد أن تكون كتابة جيدة. فنحن في النهاية صوت الضحية».[٣٥]

في روايته الأخيرة «لم يصلّ عليهم أحد» يتطرق خليفة إلى اضطهاد ومذابح الآشوريين، ويؤرقه وجود قدر ضئيل للغاية من البحوث التاريخية حول تلك المذابح وأن بعض الناس مازالوا يدافعون عن العثمانيين. «القضية السورية أيضًا سوف تبقى موضع نقاش لقرون. ككتاب نحن جزء بسيط من جيش مهمته هدم القناعات الثابتة. وأولى هذه القناعات هي كيف ينظر العالم الى قضية سوريا، لأن هناك حقائق العالم لا يريد أن يراها».[٣٦]

بالنسبة إلى خليفة، انهيار البلاد يكسب الكتابة عن الضحايا، وقصصهم الصغيرة التي تبدو تافهة، أهمية أكبر. روايته «الموت عمل شاق» (٢٠١٦) مستوحاة من

٣٤ سمر يزبك، المشاءة، (بيروت، دار الآداب، ٢٠١٦)
٣٥ حوار عبر سكايب مع خالد خليفة، أثناء تواجده في النرويج لحضور فعالية أدبية، ٧ فبراير / شباط ٢٠٢٠.
٣٦ حوار عبر سكايب مع خالد خليفة، أثناء تواجده في النرويج لحضور فعالية أدبية، ٧ فبراير / شباط ٢٠٢٠.

قصة شخصية، فبعد أن عانى من نوبة قلبية في ٢٠١٢، تساءل عما سيحدث لجسده إن مات. كان قد سمع عن الناس دفنوا موتاهم في حدائقهم لأنهم لم يتمكنوا من نقلهم إلى المقابر. تحكي الرواية عن رحلة طريق محفوفة بالمخاطر لثلاثة أشقاء عبر البلد الذي مزقته الحرب حاملين لجثة والدهم. كانت رغبة والدهم الأخيرة أن يُدفن في مقبرة العنابية، وهي قرية في ريف حلب تحت سيطرة الثوار. يندم ابنه بلبل على قطع هذا الوعد لأبيه المحتضر لأن الوضع يجعل مهمتهم شبه مستحيلة، «فالقتلى في كل مكان، يُدفنون في مقابر جماعية، ودون تدقيق في هويّاتهم. مراسم العزاء حتى بالنسبة للعائلات الغنية اختُصرت إلى ساعات قليلة، لم يعد الموت كرنفالًا يستحق إعلان النفوذ. قليل من الورد، معزّون قلائل يتثاءبون في صالة شبه فارغة لمدة ساعتين، مقرئ يتلو سورًا قليلة من القرآن بصوت منخفض، وينتهي كل شيء».[٣٧]

فنون في فضاء الدمار الشامل

أجبر اندلاع الصراع العنيف أغلب الفنانين على الفرار من البلاد، خوفًا من قمع النظام ثم من عنف الجماعات الجهادية. تمكن بعض الفنانين المعارضين من البقاء في سوريا على الرغم من مواقفهم. إلا أنهم دفعوا ثمنًا باهظًا، وهذا ما يشهد به خالد خليفة في فيلم «منفي في بيتي»: «أجول الشوارع وحيدًا. أية حياة تافهة تعاقبني بها؟ في شوارع فارغة إلا من جثث أحبتي.»[٣٨] غادر معظم أقاربه وأصدقائه البلاد، لكنه غير قادر على العيش في أي مكان آخر غير دمشق، يرفض حياة منفى، في فراغ. يجد نفسه كاتبًا معزولًا، «لم يعد لديه أي شيء يخسره، بعد أن قضى عمرًا يراقب السوريين وهم يحاولون استعادة بلادهم، ثم يخسرون كل شيء».[٣٩]

إلا أنه بشكل عام، تعبّأ المشهد الفني السوري خارج حدود سوريا وشكّل مجتمعًا عابرًا للأوطان يضم فنانين من البلدان المجاورة، وعلى نحو متزايد في الدول

٣٧ خالد خليفة، الموت عمل شاق (بيروت، مكتبة الفكر الجديد، ٢٠١٦)، ص. ٦.
٣٨ لينا سنجاب، منفي في بيتي (٢٠١٩) https://youtu.be/saWJsbMWbak
٣٩ خالد خليفة: «العيش في فراغ»، الغارديان (٢٢ أغسطس/ آب ٢٠١٧):
https://www.theguardian.com/world/2017/aug/22/living-in-a-void-life-in-damascus-after-the-exodus

الأوروبية، خاصة ألمانيا وفرنسا والمملكة المتحدة.[٤٠] كان لهذه التجربة أثر عميق ومعقّد أدّى إلى ما يصفه الفنانون بـ «صناعة اللاجئين السوريين» التي يمكنها أن تتسبب في الكثير من الاختزال.

تعترض الفنانة البصرية سلافة حجازي، وهي قد فرّت إلى فرانكفورت في ٢٠١٣ واستقرت لاحقًا في برلين، على تسمية «الفنان السوري»، وتؤكد أنها لا تريد أن تنتمي إلى هذه الصناعة.[٤١] تجسّد رسومات حجازي العنف بأسلوب متطور، وتصوّر تجربتها في الترعرع في مجتمع عسكري ومن ثم رؤية البلاد وهي تنهار بينما أصبح صوت الأسلحة هو المهيمن. تقول: «أصبح الموت حقيقة من حقائق الحياة في سوريا. أصبح أمرًا طبيعيًا وشائعًا جدًا بين الأشخاص الذين فقدوا أقاربهم، شيئًا نتعاطى معه كأمر مسلم به. اعتدنا على التعامل مع معدّل القتل المرتفع ببساطة كأرقام. حاولت أن أعكس التباين بين الحياة والموت في رسمة امرأة حامل».[٤٢]

بشكل متزايد، تتعاطى الأعمال الفنية مع العنف الذي يعصف بالمجتمع السوري. تتحدث الشاعرة رشا عمران عمّا فُقِد عندما أطلقت الشرطة الرصاص على متظاهرين يطالبون بدولة مدنية ديمقراطية تعدّدية تحت سلطة القانون. اختلطت دماء المتظاهرين بتراب سوريا، وضاع جمال الثورة الأوّلي، غرق في البحر، أو اختفى في السجون، دأو ُفن وتحول إلى غبار.[٤٣] وتقول أيضًا: «اعتدت أن أكتب عن الموت، لكن من منظور مجرد. الآن الموت بالنسبة لي لم يعد مجردًا. لقد رأيت شبابًا يقتلون أمام عيني. لطخت دماؤهم ملابسي، وذاكرتي تحمل رائحتها. أشاهد ناس بلادي يموتون على شاشات التلفزيون. الموت لم يعد مجردًا. أصبح حقيقة».[٤٤]

٤٠ كريستينا كوستزا: «فنانون من سوريا في عالم الفن الدولي: وسطاء إنسانية عالمية» ، فنون، ٨، ٤٥ (٢٠١٩):
https://doi.org/10.3390/arts8020045
٤١ إليزا جريسوولد: «تتبع رحلة فناني سوريا: ماذا يحدث عندما تشتت الثقافة؟»، نيويوركر (٢٨ يناير/ كانون الثاني ٢٠١٨):
https://www.newyorker.com/culture/culture-desk/mapping-the-journeys-of-syrias-artists
٤٢ سلافة حجازي: «مستمرة: فنان يكشف الدافع»، مع: مالو هلسة، زاهر عمرين، ونوارة محفوظ (محررون)، سوريا تتحدث: فن وثقافة من خط المواجهة (دار الساقي، ٢٠١٤).
٤٣ رشا عمران، تحدي الصمت (هاملتون للفنون والآداب، ٢٠١٨)،
https://samizdatpress.typepad.com/hal_book_rasha_omran/hal-book-defy-the-silence-poetry-by-rasha-omran.html
٤٤ رشا عمران: «الموت بالنسبة لي الآن ليس مجرد فكرة: مقابلة»، أرابليت (٢٠ سبتمبر/ أيلول ٢٠١٨):
https://arablit.org/2018/09/20/rasha-omran-now-death-for-me-is-no-longer-abstract/

ومع ذلك، ونتيجة للتركيز على العنف، يتم تجاهل إبداع السوريين. يرفض العديد من الفنانين دور الضحية ويناضلون ضد طمس أعمالهم وطموحهم في الحرية الشخصية. وقد عبّرت المخرجة السينمائية السورية وعد الخطيب عن تلك الفكرة من خلال التطريز الذي زيّن ثوبها أثناء ترشيحات الأوسكار في ٩ فبراير ٢٠٢٠: «تجرأنا على الحلم ولن نندم على الكرامة». يرفض الفنانون والناشطون السوريون تجريدهم من إنسانيتهم، ويخشون أن يُحكَم عليهم مرة أخرى بالانزواء إلى هوامش التاريخ إذا لم يعارضوا محاولات المعتدين لمحو قصصهم.

القلق على الإنتاج الإبداعي، والعمل على ضمان عدم ضياعه و خلق إمكانيات لاتصال السوريين ببعضهم البعض رغم التشرذم – هموم يتقاسمه العديد من الفنانين ونشطاء المجتمع المدني. ومن ضمن هؤلاء مصممة الجرافيك سنا يازجي التي تتمسك بضرورة الحفاظ على التعبيرات الفنية السورية. أدهشها كم الإبداع الهائل الصادر عن السوريين، سواء ما كانوا فنانين معروفين أم مواطنين يجربون أشكال التعبير الفني، وأرادت الإشادة بهذا الثراء من خلال مشروع «الذاكرة الإبداعيّة للثورة السوريَّة». بدأت هي وفريقها منذ عام ٢٠١١ في بناء أرشيف إلكتروني للتعبيرات الفنية الثورية. وبحلول أوائل سنة ٢٠١٧، كانت الذاكرة الإبداعيّة قد أرشفت أكثر من ٢٥ ألف من التعبيرات، منها شعارات ومنحوتات وجداريات وجرافيتي وموسيقى وأغاني ولوحات وأشعار وملصقات وكاريكاتير وتصوير فوتوغرافي ومطبوعات وعروض مسرحية ولافتات وفيديوهات وحتى طوابع. ومن خلال ترتيب زمني وموضوعي، يتتبع الموقع أو المجتمع الافتراضي مسار الإبداع الثوري.[٤٥]

يقول الشاعر الأمريكي جريجوري أور، في إشارة إلى التقليد اليهودي، إن «الكلمات تصنع العوالم».[٤٦] من خلال اللغة والأعمال الشعرية، يستدعي الفنانون السوريون عالمًا يمكنهم فيه التحدث والكتابة بحرية. وبالرغم من التشظّي والدمار واستحالة معالجة كل هذا الفقد بطريقة مجدية، فإن حرية الكتابة بالذات لم تُفقد أو تصادر. من خلال لغة غنائية أو قاسية أو مجازية، يتفاعل الكتاب مع الحزن

٤٥ مريم كوك: «إعادة تصور الثورة السورية»، صحيفة: ASAP، المجلد/ ٣، العدد: ٢، (٢٠١٨).
٤٦ غريغوري أور: «تشكيل الحزن باللغة»، عن التواجد مع كريستا تيبيت (٣٠ مايو/ أيار ٢٠١٩):
https://onbeing.org/programs/gregory-orr-shaping-grief-with-language/

والصدمة، يزجّون بسردياتهم إلى المجال العام، ويحدّون من إقصاء الضحايا إلى هوامش التاريخ. فحتى إن لم يكن في مقدورهم التمتع بالحقوق الأساسية، فهم/ن لن يفقدوا الحق في الحكاية.